

الشكل الخارجى للموشحة

- ٧ -

أوزان الموشحات

لقد عكف فى القديم ابن سناء الملك على اكتشاف ميزان الموشحة وقد أعلن عجزه كما سنرى ، وفى الحديث عكف على ذلك فى مصر د. سيد غازى وكان دليله عروض الخليل ، وقد فاته أن كل كلام يمكن أن يخضع لهذا العروض فوقع فى تعقيدات لا أول لها ولا آخر ، وعمله أشبه بعمل ابن سناء الملك ، وفى اسبانيا بذل غارسيا غومس جهدا مضاعفا وقد ألحقها بالعروض الاسبانى ، وألحق العروض الاسبانى بها واستعار صيغة من عروض الموسيقى العربية الذى يستخدم (تن - تنن - تنتن) بديلا للأسباب والأوتاد والفواصل . كما أن باحثا شيلانيا ، وهو أستاذ موسيقى بجامعة شيللى الكاثوليكية بسانتياجو - واسمه : صمويل كلارو - فالديس - يقدم اقتراحا فذا يكاد يكشف عن سر الموشحة بدراسة نصوص «لاكويكا» الشيلية ، وهى نصوص مصحوبة بنوبة موسيقية ورقص . والنصوص عبارة عن نسخة اسبانية من الموشحة والنوبة الموسيقية الزريابية العربية الأندلسية ، قد حملها الأندلسيون الى تشيللى ، وقد احتفظت بهيئتها ونقاوتها بسبب العزلة الطبيعية التى حمت هذه الجمهورية الامريكية اللاتينية من المؤثرات الأجنبية فترة طويلة . وقد ساعد العالم الموسيقى الشيلانى مغنى لا كويكا وملحن ومؤلف لكلماتها اسمه فرناندو جونثالث ، قد أفنى عمره - ولا زال - فى البحث عن أصل هذا الفن الشامل (كلمات شعرية - موسيقى - غناء - رقص) ، فوجده فى النوبة الأندلسية ، وقد اقترح أن يطلق اسم «الخرجة» على هذا الفن (*) .

من المفيد جدا أن نبدأ بأول تجربة عند ابن سناء الملك يقول : «والموشحات تنقسم قسمين : الاول ؛ ما جاء على أوزان أشعار العرب ، والثانى ؛ ما لا وزن له فيها ، ولا المام له بها .

(*) سلمنى هذا الاستاذ المذكور نسخة من بحثه حول لاكويكا وعلاقتها بالنوبة الأندلسية ، وقد نشر هذا البحث فى مجلة «الفنون الجميلة» التى تصدر فى برشلونة ولم أتمكن من الحصول عليها ، وعموما هذا البحث تمت ترجمته ، وسأقوم بنشره قريبا .

(١) والذي على أوزان الأشعار : ينقسم قسمين :

(أ) أحدهما : ما لا يتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج به تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعري ، وما كان من الموشحات على هذا النسج ، فهو المرذول المخذول ، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات (*) ولا يفعله الا الضعفاء من الشعراء ، ومن أراد أن يتشبه به بما لا يعرف ، ويتشبع بما لا يملك ، اللهم الا ان كانت قوافي قفله مختلفة ، فانه يخرج باختلاف قوافي الأقفال عن الخمسات ، كقول بعضهم :

ياشقيق الروح من جسدى أهوى بسى منك أم لم
فهذا من المديد ، وكقول الآخر :
أيها الشاكى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع
فهذا من الرمل :

وفي شجعان الوشاحين والطعانين في صدور الأوزان من يأخذ بيت شعر ، فيجعله خرقة ويبنى موشحه عليه ، كما فعل ابن بقی في بيت ابن المعتز ، وهو :
علمونى كيف أسلو والا فاحجبو عن مقلتى الملاحا
فان ابن بقی جعله خرقة لموشح .

وفي الوشاحين من أهل الشطارة والدعارة ، من يأخذ بيتا من أبيات المحدثين ، فيجعله بالفاظه في بيت من أبيات موشحة كما فعل ابن بقی في بيتى كشاجم ، فان كشاجم قال :

يقولون تب والكأس في كف أغيد وصوت المثانى والمثالث عال
فقلت لهم لو كنت أضمرت توبة وأبصرت هذا كله لبدا لى
فقال ابن بقی :

قالوا ، ولم يقولو صوابا
أفانيت فى المجون الشبابا
فقلت لو نويت متابا

والكأس في يمين غزالي والصوت في المثالث عال لبدا لى

(*) هذه العبارة هامة جدا ، فهى تبطل ادعاء أن الخمس هو أصل الموشح .

(ب) والقسم الآخر : تخللت اقفاله وأبياته كلمة أو حركة ملتزمة كسرة كانت أو ضمة أو فتحة ، تخرجه من أن يكون شعرا صرفا ، وقريضا محضا ، فمثال الكلمة قول ابن بقي :

صبرت والصبر شيمة العانى - ولم أقل للمطيل هجرانى - معذبى كفانى

فهذا من المنسرح وأخرجه منه قوله : «معذبى كفانى» . ومثال الحركة هو أن تجعل على قافية في وزن ، ويتكلف شاعرها أن يعيد تلك الحركة بعينها وبقافيتها كقوله :

يا ويح صب الى البرق - له نظر - وفي البكاء مع الورق - له وطر

فهذا من البسيط والتزام إعادة القافية في وسط الوزن على الحركة المخفوضة هو الذى أشرنا إليه .

(٢) والقسم الثانى من الموشحات : هو ما لا مدخل لشيء منه في أوزان العرب ، وهذا القسم منها هو الكثير ، والجم الغفير ، والعدد الذى لا ينحصر والشارد الذى لا ينضب ، وكنت أردت أن أقيم لها عروضاً ؛ يكون دفترا لحسابها ، وميزانا لأوتادها وأسبابها ، فعز ذلك وأعوز ، لخروجها عن الحصر ، وانفلاتها عن الكف ، ومالها عروض الا التلحين ، ولا ضرب الا الضرب (*) ، ولا أوتاد الا الملالوى ولا أسباب الا الأوتار ، فبهذا العروض يعرف الموزون من المكسور والسالم من المزحوف ، وأكثرها مبنى على تأليف الأرغن ، والغناء بها على غير الأرغن مستعار ، وعلى سواه مجاز (١) .

يمكن تلخيص كلام ابن سناء الملك في سطرين :

الموشحات تنقسم الى قسمين :

١ - ما يدخل في أوزان العرب ، وهذا ينبغي كسره بحركة في تقفية داخل أشرطة البحر العروضى أو بإضافة عبارة الى مجمل البحر .

٢ - ما لا يدخل في أعاريض العرب ، وعروضه هو الموسيقى وهذا يشير الى أمرين :

(*) العروض والضرب (الأول) يشيران لنهاية شطرى بيت الشعر العربى ، أما الضرب الثانية فتعنى الاداء الموسيقى .

(١) دار الطراز ٢٢ - ٣٥ .

١ - أهمية القوافي ودورها الخاص في وزن الموشح على مقتضى احتياجات موسيقية بعينها .

ب - أهمية الموسيقى في فهم الموشح ، والموسيقى الاندلسية خاصة باستعمال آلة الأرقم .

ويدعم الفروض السابقة تقسيم جديد للموشحات يرتبط أيضا بعروضها ، ولكن هذه المرة عروض الأوزان الداخلية بين البيت والقفل . يعرض ابن سناء الملك هذا التقسيم قائلا : «الموشحات تنقسم - من جهة أخرى - الى قسمين : قسم أقفاله على وزن أبياته حتى كأن أجزاء الأبيات كأجزاء الأقفال ، كقول الأعمى :

أحلى من الأمن / يرتاع من قربي / ويفرق

في وجهه سنه / يشجى بها العذل / ويشرق

لله ما أقرب / على محبيه / وأبعدا

حلو اللمي أشنب / أسى الضنى فيه / وأسعدا

أحبب به أحب / ويا تجنيه / طال المدى

أما ترى حزني / نارا على قلبي / تحرق

حسبي بها جنه / يا ماء يا ظل / يا رونق

وقسم أقفاله مخالفة لأوزان أبياته مخالفة تتبين لكل سامع ، ويظهر لكل ذائق كقول بعضهم :

بيت (غصن) — الحب يجنيك لذة العذل / واللوم فيه أحلى من القبل

قفل — لكل شيء من الهوى سبب / جد الهوى بى وأصله اللعب

وأن لو كان جد يغنى / كان الاحسان من الحسن

فها أنت ترى مباينة الأقفال للأغصان مباينة ظاهرة ، ومخالفة بعضها لبعض مخالفة واضحة . وهذا القسم لا يجسر على عمله الا الراسخون في العلم من أهل هذه الصناعة ، ومن استحق منهم على أهل عصره الامامة ، فأما من كان طفيليا على هذه المائدة ، فانه اذا سمع هذا الموشح ، ورأى مباينة أوزان أقفاله لأوزان أبياته ، ظن أن هذا جائز في كل موشح ، فعمل مالا يجوز عمله ، ومالا يمشيه التلحين له ، وتظهر فضيحة فيه وقت غنائه ، فان المغنى ببعض الآلات يحتاج

الى أن يغير شد الأوتار عند خروجه من القفل الى البيت ، وعند خروجه من البيت الى القفل ، وهذا مكان ينبغي أن يلحظ ويحفظ (١) .

وهذا تقسيم آخر بالغ الأهمية ، فمن الموشحات ما تقسم على لحن واحد الانسياب ومنها ما يحتاج لتعديل شد الأوتار لتعويض الفروق بين البيت والقفل بحددة الأنغام أو تراخيها . وهو يشير الى وظيفة أساسية للموشح مهمة بشكل حاد في المصادر القديمة : انها كلمات للغناء قبل كل شيء ! ومؤلفها خبير بأسلوب تلحينها بل لعله يبدأ باللحن (أقصد الخرجة) قبل الكلمات . وحيث انه يبدأ بالخرجة ، فهو قادر على أن يساويها وزنا بالأبيات أو يباين بينهما طبقا لمجرى اللحن .

ويمضى ابن سناء الملك في مقدمته الممتازة التي لا يخل من خطورة ما تحمله لنا من أنباء حماسه المبرر (*) ، فيعود لعرض تقسيم ثالث : «الموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين :

قسم : لأبياته وزن يدرکه السمع ويعرفه الذوق كما تعرف أوزان الأشعار ولا يحتاج فيها الى وزنها بميزان العروض ، وهو أكثرها ؛ وقسم مضطرب الوزن ، مهلهل النسيج ، مفكك النظم ، لا يحس الذوق صحته من سقمه ، ولا دخوله من خروجه ، كالموشح الذي أوله :

أنت اقتراحي / لا قرب الله اللواحي
من شاء أن يقول فأنى لست اسمع
خضعت في هواك / وما كنت لأخضع
حسبى على رضاك / شفيح لى مشفع
نشوان صاح / بين ارتياح وارتياح

فها أنت ترى نبو الذوق عن وزن هذا الكلام ، وماله عند الطبع الضعيف نظام ، ولا يعقله الا العالمون من أهل هذا الفن ، والملائكة المقربون من أهل هذه الصناعة ؛ ومثل هذا لا يقدم عليه الا مثل الأعمى ، والا فالبصير يحذره ولا ينظره ، وما كان من هذا النمط ، فما يعلم صالحه من فاسده ، وسأله من

(١) نفسه ٣٥ - ٣٦ .

(*) يبرر حماس ابن سناء الملك من غيظه لاهمال هذا الفن الجميل بسبب أصله الشعبي ، ويحاول أن يقنع العقول الجامدة بأهميته وجماله ، فهو رائد النقد والتنظير في مجال الموشحات ، وكل رائد مضطرب للدفاع عن الجديد الذي يدعو اليه .

مكسورة الا بميزان التلحين ، فان منه ما يشهد الذوق بزحافه بل يكسره ، فيجبر التلحين كسره ويشفى سقمه ، يرده صحيحا ما به قلبه ، وساكننا لا تضطرب فيه كلمة (١) .

ونظن شيئا من التفصيل والتزيد في التقسيمات لكن ابن سناء الملك يحوم حول الغرض ولا يدركه ، فهو هنا يشير الى نثرية لغة الموشح ، واعتمادها على اللحن الكامن من ورائها يحسه أصحاب الذوق الرفيع ، ويقدم تقسيما رابعا يلح فيه على علاقة الموشح بالموسيقى : «الموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين : قسم يستقل التلحين به ، ولا يفتقر الى ما يعينه عليه ، وهو أكثرها ؛ وقسم لا يحتمله التلحين ، ولا يمشى به الا بأن يتوكأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة التلحين وعكازا للمغنى ، كقول ابن بقی :

من طالب / ثار قتلى ظبيات الحدوج
فتانات الحجيج

فان التلحين لا يستقيم الا بأن يقول «لا لا» بين الجزئين الجيمين من هذا القفل (٢) .

كل التقسيمات السابقة لا تحمل الا دلالة واحدة وهي أن الموشحة تقاس باللحن ، وأنها تقوم على تقنية تجعلها صالحة للغناء بها دون مشاكل ، أو جعلها قابلة لذلك بعون تقنيات اضافية أو الاستعانة بحركات (فتحة أو كسرة أو ضمة) زائدة عن البحر العروضي ، وربما الاستعانة بعبارات مثل عبارة «معذبي كفاني» المشار اليها من قبل .

وهذا كله لا يحمل الينا أخبارا واضحة حول الموشحات . لكننا ندرك أن الموشح اما يتطابق مع اللحن أو يحتاج لاضافات تبدأ «بالحركة» وتنتهى بالمعبرة الكاملة كى يتطابق مع اللحن . وكأننا هناك لحن مثالي هو عروض الموشح الخفى في حالة الموشح الذى يتطابق مع العروض العريى ، وينبغى اضافة زوائد اليه حتى يتفق مع ذلك العروض المثالى الموسيقى ، بينما هناك موشح آخر عروضه يتفق مع العروض الخفى المثالى . أيضا هناك مشكلة أخرى ترتبط بالعروض المثالى هي : اختلاف أو اتفاق البيت والقفل .

ماذا قال المحدثون - حول ذلك - فى الوصول الى شىء محدد حول وزن الموشح ؟ الاجابة ستكون فى خاتمة هذا الكتاب .

(١) نفسه ص ٢٧ .

(٢) نفسه ص ٢٨ .